

## التقوى أساس المسؤولية

دراسة تحليلية على ضوء القرآن الكريم

عبد الجواد خلف عبد الجواد

مبعوث الأزهر في باكستان

تقديم :

أشيع في كثير من المجتمعات الاسلامية عن التقوى، أنها ذلك الجانب السلبي لفئة مخصوصة من الناس تتقاعس بهم همهم عن معترك الحياة، و تركن بهم عزائمهم عن القيام بما يفرضه الوجود الانساني من التقدم العلمي و الحضارى لعمارة الكون، فينزون في زاوية، أو مسجد، أو يفرون الى فلاة أو خلاء طلباً، للعبادة و التمسك، و تركاً للمشاركة فى البناء و التعمير، و ركونا الى الدعة و السكون، قانعين من الغنيمة بالاياب .

أو أن التقوى - فى حسابانهم - شأن فريق من غير المبالين ممن لا يهمهم او لا يعينهم أن تتقدم الامة أو تتأخر، تنتصر الجيوش أو تهزم، تبقى الحكومات أو تزول، قدرنا يهمهم ما يصل إليهم من لقيمات سائغات تأتي إليهم من راتب، أو حقل، أو متجر، ثم هم بعد ذلك منكبون على سبيحة طول يوسهم يتمتمون بها كيف شاءوا و أنى أرادوا .

و حسبك أن تعلم أن التقوى بهذا الفهم المعوج انما هو ترويح فئة مندسة على الاسلام أرادت أن تشوه وجهه النضر، و تطمس الجانب العملى لمقصد الشرع الاسلامى فى عمارة الكون، والاخذ باسباب العلوم و المعارف فيما يرتقى بالامة، وينهض بالمجتمع .

أما التقوى في الاسلام فهي جانب عملي لا سلبي، و عنصر قوى فعال في بناء شخصية الانسان الذي تقوم على أكتافه حضارة الامة سلوكا و أداء .

و يوم تنتبه الجهات المعنية في المجتمعات الاسلاميه إلى خلق جيل من الشباب المسلم قد تربي على التقوى بمفهومها الحقيقي كأساس عملي في بناء الشخصية الاسلاميه، يومئذ يقال بحق إن جيلا من الشباب المسلم قد تربي على حسن ادراك المسؤولية .

و اني إذ أقدم هذا المبحث الصغير عن "التقوى أساس المسؤولية"، إنما أقدمه معتمدا على دراسة تحليلية لآيات القرآن الكريم التي تضمنت لفظ التقوى بجميع الاشتقاقات، و ما تشير إليه هذه الاشتقاقات من معان، في مظان مختلفة، قصد بها مجتمعة، وضع منهج سلوكي، عملي، في كافة مجالات الحياة، لخلق مجتمع اسلامي متميز، تنبع فيه المسؤولية الذاتية من ضمير كل فرد من أفراد .

و ما ورد في هذا المبحث من استدلالات أخرى، إنما هي محض فضل مفهوم من آيات الذكر الحكيم، و إنى لأرجو أن يوفقني الله عزوجل الى ازالة غبار الفهم عن المعنى الحقيقي للتقوى لابرازها في ثوبها الحقيقي الذي أراده القرآن الكريم، كسلوك عملي، يظهر في نشاط الأفراد اليومي، في دأبهم وسعيهم، لبناء الحياة، بعيدا عن الانعزالية التي يحاول المندسون على الاسلام الصاقها به .

### اشتقاق اللفظ ومدلولاته :

أصل معنى "التقوى"، في لغة العرب مأخوذ من مادة الفعل "وقى"،

تقول : اتقيت الشيء أي "حذرتة"،

فيكون معنى التقوى "الحذر"،

و المتقى " الحاذر، و هو المتهى' المستعد.

وقد ورد هذا المعنى بجميع الاشتقاقات فى القرآن الكريم، فى سبع و خمسين و مائتى موضع، كانت كلها بمثابة أوامر ، أو توجيهات للإنسان، فى كافة وظائفه، و على مختلف الأجيال، أن يتحمل مسؤوليته التى خلق من أجلها، وهى العمل الصالح الجاد فى الدنيا عبادة و عملاً- وصولاً إلى رضا الله الخالق فى الآخرة - لا و مستقراً .

و ليس مما يستساغ بداهة لهذا العدد الوفير من الأوامر، و التوجيهات، المنصب على معنى واحد من المعانى هو "التقوى"، أن يراد به السلبية أو الانعزالية عن عمارة الكون، و الأخذ بأسباب التقدم و الحضارة .

فقد شملت الأوامر و التوجيهات بالتقوى جميع النظم التى تقوم عليها الأمة الناهضة من عقيدة راسخة، و شريعة قوية مرنة .

فتناولت مسؤولية المسلم فى توحيد الله - سبحانه و تعالى - و القيام بواجبات الطاعات من صلاة و صيام و زكاة و حج، جنباً الى جنب مع القيام بما يكفل للأمة صيانتها، و يحفظ عليها بنيانها، من إعداد للقوة العسكرية، و السياسية، و الاقتصادية، و الاجتماعية، مع الأخذ بأساليب العلم المتقدم فى كل جانب من هذه الجوانب .

بحيث نقول : إن الأمة اذا أهملت اقامة مصانع السلاح على أحدث ما وصل أو يصل إليه العلم من اختراعات فى هذا الجانب الحربى الهام، فقد أهملت تقوى الله، و مراقبة أمره، فى تحقيق المعنى المتصود من أعداد القوة العسكرية، لتأمين سلامة الثغور، و الحدود، و زرع المهابة و الرهبة فى نفوس أعداء الاسلام و المسلمين .

و الأمة اذا سارت في شئونها الاقتصادية سيرا إرتجاليا، دون الاخذ بأحدث ما يصل اليه الفكر الانساني في الموازنة بين المنصرف و الوارد، و إهمال وضع الدراسات العلمية لخطط اقتصادية طويلة الأمد، و تخليص المال العام و الخاص من الشائبات المحرمة، و اهمال انشاء مصارف التنمية أو انشائها مع عدم تخطيطها أو تنظيمها . أمة أهملت المعنى المقصود من تقوى الله تعالى في تنظيم المال .  
والامة التي لاتختار الحاكم المناسب عندما يتاح لها هذا الاختيار بالاقتراع أو التصويت أو بما يصطلح عليه بين الجماعة لاختيار الحاكم أوالنائب، أمة تبتعد عن إقامة المصلحة العامة فيما شرعه الله لإقامة العدل بين الناس .

و الأمة التي لاتراعى حق الله في طاعة حاكمها الذي اختارته بنفسها، أمة تهمل تقوى الله و مراقبة أمره في طاعة ولي الأمر .

كما يمكن القول : بأن الفرد الذي يصرف طول يومه ، أو أكثره عاكفا على صلاة، أو محتجا بصوم، تهربا من واجبه في بناء المصنع و تحسين انتاجه، أو ارواء حقله، و انماء زرعه، أو هروبا من واجبات دفتره و تحصيل علمه، أو ماشابه ذلك من الوقائع والأشياء، فليس له من صلاته وصومه بقدر ما أثم في ترك ما عليه من واجب و مسؤولية فيما ترك .

و مخطئ كل الخطأ ذلك الذي يتعنت في فهم الاسلام من حيث يفهم أن الاسلام طنوس فحسب ! فالأسلام لم يجئ لتصحيح العقائد ثم يصمت !  
و انما جاء ليبنى حياة و يعمركونا، و يقيم بشرية على ضوء عقيدة صحيحة، تقوم على أكتاف أفراد مسؤولين، تنبع المسؤولية من ذات أنفسهم لا من خارجها، و تنقاد بصائرهم المدركة لهذه المسؤولية الى آفاق السماء لا الى وحل الأرض !

ورسالات السماء - والا سلام أولها وآخرها - تدرك أن الحياة تعمير و اصلاح،  
و أن التعمير و الاصلاح أساسهما . . القوة !

ولقد أدرك الاسلام - أو هكذا أريد له أن يدرك - أن القوة ليست بالمادة  
وحدها كما كانت رسالة بنى اسرائيل على عهد موسى عليه السلام، أو أن القوة  
بالروح وحدها كما كانت رسالتهم على عهد عيسى عليه السلام، و انما أدرك أن  
القوة الدافعة لعمارة الكون و خلق الحياة الفضلى انما هي بالروح و المادة معا!

فلا تستقيم صلاة، ولا صدقة، ولا حج، ولا صوم، فى ظل مجتمع يهمل العناية  
بتنظيم السياسة، و الحرب و المال، و إقامة المؤسسات العامة، و إنشاء مرافق  
الدولة القوية الناهضة !

بل إن الاسلام خطا خطوة عملية فى سبيل المحافظة على نظام مجتمع شعاره  
العمل للدين و الدنيا معا، عند ما أقام نظام "المراقبة الذاتية"، التى أضفت عليها  
آيات القرآن الكريم تعبير "التقوى"، اشعاراً بأن المراقبة انما هى قبل خالق لا يغيب  
ولا ينام ! و أن هذه المراقبة تابعة من ضمير الفرد المسلم، جارية منه مجرى الدم،  
فى كل عمل يؤديه للدين أو الدنيا، حيث يكون الدين و الدنيا فى عرف "المراقبة  
الذاتية"، مسئولية المسلم أمام الله تعالى الذى هبأ له السبيل و أوضح له الطريق .

فما الدنيا للدين الا داره العظيمة .

و نحن مطالبون أن نهى هذه الدار لانتشار الدين و رسوخه فيها . ليس  
هذا فحسب . . بل نحن مطالبون - فى سبيل إقامته - إقامة بنى الدار بكل ما تتفق عنه  
أذهان البشرية من علوم و فنون و معارف باعتبارها دار التكليف و التعبد .

و أى تصور فى بناء دارالدنيا على هذا النحو انما هو فى الاصل تصور فى  
إرساء قواعد الدين و استقراره .

فاذا تراخت الهمم عن الاخذ باساليب العلم المتقدم لبناء دارالتكليف  
فما وجه الملازمة للدين ؟ وما وجه التصور فى تعاليمه ؟

و لقد أقام السلف الصالح من هذه الامة بناء دنياهم على أحسن ما يكون  
البناء فاستقر دينهم حيثما بنوا .

و عند ما تقاعس المسلمون من بعدهم عن الاخذ بواجبهم الدينى تجاه الحياة  
الدنيا بوسائل التقدم العلمى، و انفرط من بين أيديهم ذلك العقد الثمين الذى  
نظمه أساطين المعرفة المتقدمة من المسلمين فى الكيمياء، و الطب، و الطبيعيات،  
و علوم الفلك و غير ها عندما حدث للمسلمين ذلك انحطت سمالكهم ، و دالت  
دولهم بعد ما سادت دهرأ طويلاً، و أجيالا متعاقبة، نشروا فيها نور العلم جنباً الى  
جنب مع نور العقيدة، أو قل نشروا فيها نور العلم على هدى من ضوء أنوار العقيدة  
و كانت النتيجة الحتمية لذلك التقاعس فى هذا الجانب أنه لم تقم لدولة الدين  
بدون العلم قائمة، و لم يرتفع لها سلطان .

و لم يكن هذا فى توجيهات الاسلام، و ليس هو من مراده بحال من الأحوال  
وما الدين للدنيا الا للعمارة و الصلاح، و استقامة الاوضاع البشرية المتجددة .

و نحن مطالبون أن نقيم الدين، و أن تقام و جوهنا للدين .

لأن هذا هو التكليف الفعلى لبنى الانسان خلال مراحل وجودهم فى هذه  
الدنيا فاذا تراخت الهمم عند بعض المجتمعات عن اقامة العقائد الدينية، فلا قيمة

للحياة التي يحيونها - مهما بدت صورة الحياة للأعين المجردة هنيئة براءة !

و لقد ظهرت في مجتمعات الشرق و الغرب نظريات عديدة يهرها ما وصل إليه الانسان بواسطة العلم الحديث، و غيرها ما بين أيديها من مخترعات الرفاهية، أو التدبير، فراحت تنبذ الأديان، و تتهمها بالجهل و تخدير العقول، و تأخير مسار الانسانية نحو الكمال الحضارى، فأشاعت الالحاد و جهرت به، و كفرت بزوال الدنيا، و قدوم الآخرة و ما فيها، زاعمين أن ما فيها من جنة أوانار، انما هو تخريف أديان ، حيث كانت الألوهية - بزعمهم - خرافة ! تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

و اذا أنت حاولت أن تتغلغل في أعماق النفس الانسانية لهذه المجتمعات الآن، قائما على دراسة سيدانية للفرد والأسرة لوجدت مجتمعا سبهور الانفاس متهالك القوى، أذلته الآلة و أعماه غرور العلم المادى المتقدم، فنسى نفسه كانسان، و نسى أسرته كنواة لمجتمع انساني فاضل، و راح يجرى وراء شهواته و منزلقاته باسم الحرية . . بعيدا عن قيود الدين، فاصابته علل العصر من قلق ، و شذوذ، و هلوسه، حتى أصبح لا يدري من هو؟ و لا الى أى شىء صار أو يصير؟

ولأن الدين فضيله . فهو لم يعد يقيم للفضيله - وزنا ، أو يجد لها سبررا، لأن الرذيله - عنده بغير حدود، يمارسها بنفسه فى زوجات الآخريين و فى غير الزوجات ! و يمارسها غيره فى زوجته أو فى شخصه فلا بأس . . ولا حساب . . !

و إذا أردت أن تجادله فهو اساحر . . و اسامريض . . !

و الحرية - حق يمارسها . . والسؤال عنها بكيف . . ؟ جهل . . !

و المرض داء - شذوذ أو غيرشذوذ - و ليس على المريض من جواب

لسائل . . !

و هكذا يصطرع المجتمع المادى فى داخله، كما تصطرع الجرائم فى  
الداء العضال، أو الجرح المتعفن .. !

فى المجتمع الاسلامى تناسى المسلمون تعاليم دينهم فى الاخذ بأسباب  
العلم و مواصلة التقدم فيه، كما تناسوا توجيهات الله - سبحانه و تعالى -  
و تقواه فى هذا الجانب الهام لعمارة الكون و تقدم الانسانية، فانحطت دولتهم  
و بادت.. و ان بقى التمسك بفضيله" الدين - فيما وراء ذلك - عاصما من كثير  
من أمراض العصر و شذوذه، و تفكك الأسرة و اندفاعها نحو الانحدار فى كثير  
من المجتمعات الاسلامية" .. !

و فى المجتمعات المادية الملحدة نسى الانسان الدين كليه" بأمر الدولة،  
أو باباحتها، أو هو على أحسن الفروض، اعتبر أن الدين شىء ثانوى ليس له فى  
حسابه ولا فى وقته قليل، أو كثير، فانحطت قيمه، و روابطه الاجتماعية و تفككت  
أسرته، و أصابته الاوئية، و علل الماديات الآسنة و ان بقيت دولته تقوم بقوة السلاح  
و جبروت المخترعات، و سلطان الفتك و التدبير .. !

ولكن.. ماذا بعد.. ؟ و الجواب : أن الانسان مسئول على أى حال مهما  
كانت معاذيره (بل الانسان على نفسه بصيرة و لو ألقى معاذيره) (١)

وإنسان التربية الاسلامية : هو الانسان الذى يقدر مسؤوليته و يدرك  
أبعادها الحقيقية، فهو يختار الطريق الصحيح لسلوكه، ثم يراقب هذا السلوك .  
و مراقبة المسلم لسلوكه هو المعيار الصحيح لدرجة إيمانه صعوداً  
أو هبوطاً.. و المراقبة و السلوك بابان من أبواب التقوى .

(١) الآية - : ١٤ القياسه -



## التقوى .. و .. المسئولية :

(أ) الانسان فى نظر الاسلام هو ذلك الكائن الذى كرمه الله وفضله على كثير من خلقهم، وسخر له ما فى الكون جميعا، بما يدب على الارض، أو يسبح فى الماء، أو مما هو بين ذلك جميعا ليعمر الارض، ويتدبر مقصد الله فى خلقه له، وابعاده عليه .

” ولقد كرمنا بنى آدم و حملنهم فى البر و البحر و رزقنهم من الطيبات و فضلناهم على كثير من خالقنا تفضيلا، (١)

(ب) و لقد سبق فى علم الله الخالق أن يكون هذا الانسان الكائن، هو مقصد الارادة الالهية فى جعله مستخلفا على الارض دون سائر المخلوقات حتى الملائكة المسبحون .

” و اذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة قالوا أنجعل فيها من يفسد فيها و يفسك الدساء و نحن نسبح بحمدك و نقدر لك قال انى أعلم ما لا تعلمون، (٢)

(ج) و كان على الانسان أن يلتزم بقبول هذا الاستخلاف و قد هيء له بما و به الله — تعالى — من قوة المعرفة بطريق العمل و الشرع .

” و اذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم و أشهدهم على أنفسهم ألسنت برىكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة ان كنا عن هذا غافلين .

(١) الآية : ٧٠ - الاسراء

(٢) الآية : ٣٠ - البقرة

أو تقولوا انما أشرك آباؤنا من قبل و كنا ذرية من بعد هم أفتهلكنا بما فعل  
المبطلون،،(١)

ولكن .. ما هو دور التقوى هنا بالنسبة للمسئولية ؟

و الجواب عن ذلك : أن الانسان في خلافته للارض و عمارة الحياة، يجهد  
جهدا بليغا بما فطر عليه من نوازع و دوافع، تشده احداها الى الخير، بينما تجذبه  
أخرها نحو الشر، و هو بين المنزعين مطالب بأن يراقب نفسه و يحاسبها قبل  
الاقدام على الفعل، فيحذر الشر و ينبو عنه، و يتهميا للخير و يؤديه .  
فان حذر الشر و تهيأ للخير فقد بر بمسئوليته قبل عهد الله له، و اتقاه  
فيما استخلفه عليه و مناط الرضا و القبول من رب العزاء — جل و علا — إنما  
يدور حول هذا المسلك فحسب .

”انما يتقبل الله من المتقين،،(٢)

### مفهوم مسئولية التقوى :

الناظر الى التقوى من واقع آيات القرآن الكريم يدرك أنها مسئولية على  
أعلى مراتب المسئوليات التي عرفتها البشرية في أنظمتها الوضعية .  
”حيث تنتفي المسئولية عن الانسان في القانون الوضعي،، ما لم يرتكب  
خطأ حيا لغير(٣) .

(١) الآية- : ١٧٢ - ١٧٣ الاعراف

(٢) الآية- : ٢٧ المائة

(٣) راجع ” اصول الالتزامات “ د. سليمان مرقص ج ١ بند ٣٥٩

أما المسؤولية في التقوى : فانها مراقبة الفعل قبل وقوعه، للتحذير من الفعل الضار، و التنبيه على الفعل النافع .

بل إن درجة المسؤولية في التقوى ترتقى من حد المراقبة المجرد، الى حد الاخلاص في هذه المراقبة حيث تكون التقوى إتقان العمل و الاخلاص فيه عندما ينعدم الرقيب والرئيس والناظر و الملاحظ ولا يبقى للمرء الاثمة التامة في أن الله الذى خلقه هو وحده الذى يراه و يراقبه . . !

و اذا ارتقت معرفة المرء لمسئولته الى هذا الحد، و أنتج عملا من الاعمال، فلا يمكن لفرد من الافراد غيره أن يبلغ درجة اتقانه، ولو كان من ورائه عشرات المراقبين و المفتشين و النظار و الملاحظين .

فالعامل العادى: الذى يقف أمام آلة فى مصنع تدير عملا من الاعمال، إنما يتقن عمله بالدرجة التى يتعين على المراقب من ورائه أن يلاحظه فيها .  
فان قلت المراقبة هبط الانتاج عن معدله، أو عن جودته .

و العامل التقى: الذى يقف أمام هذه الآلة نفسها، لن تقل درجة انتاجه، و لن تهبط نوعيتها عن معدلها إن لم تزد . بقى المراقب من خلقه أو ذهب . . !  
لأن مسؤولية التقوى فى ذاته سائلة فى ضميره، تقول له دائما :

ان المراقبة الانسانية تزول على أى حال . . و اكن الله وهو المراقب الحقيقى  
لا يزول ولا يغفل عن حال بأى حال . . !

فمثل هذا العامل الذى تتبع المسؤولية من تقواه، لا يعنيه إن حضر المراقب أو غاب . . جاء الممتش أو ذهب . . !

ولكن الذى يهمله ويحرص عليه هو ما بين جنبيه "التقوى" . . !  
 ومثل هذا العامل الذى تربي على "المراقبة الذاتية"، لا يصعب عليه  
 سلوك هذا المسلك،

فهو لا يستثقله، ولا يمل منه، لأنه اعتاد على هذا السلوك فى أنواع  
 العبادات المختلفة، فهو يصلى، و يصوم، و يتصدق، و يجج حيث لا رقابة، ولا رياء،  
 ولا ناظر عليه، ولا ملاحظ خلفه .

فاذا كلف بعد ذلك بعمل من الاعمال مشروع فى نظر الاسلام فانه يقف  
 منه موقف العبادات لله رب العالمين أداء و مسلماً .

كما يجب أن نلاحظ من مفهوم مسئولية التقوى، أن هذه المسئولية قائمة  
 بقيام الانسان المسلم نفسه . . أخطأ، أو أصاب !

فان أصاب فقد قام بمسئوليته نحو نفسه، و نحو الله . و أن أخطأ فقط تنكب  
 الطريق للوصول الى هذه المسئولية .

و عليه أن يراجع نفسه فى هذا الخطأ ليعدل به الى الصواب .

لأن العدول عن الخطأ الى الصواب جزء من مسئولية التقوى أيضا . . !

"ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم ببصرون"، (١)  
 و أولى مراتب العدول الى الصواب الندم على الخطأ، و التوبة عنه، و ازالة الآثار  
 المترتبة عليه .  
 (البقية)

(١) الآية- ٢٠١ الاعراف